

آخر عرض في سينما النيل

حمادة حامد محمود نور الدين

قبل أن تُهدم سينما النيل بثلاثة أيّام، عُرض فيها فيلمٌ لم يكن موجودًا في أيّ أرشيف.

كنتُ يومها مصوّرًا شابًّا في جريدة صغيرة، كُلّفتُ بتغطية «وداع السينما العجوز»: صورتان وخبرٌ من عشرة أسطر. وصلتُ قبل المغرب فوجدتُ الشارع خاليًا، واللافتة الحديد تتدلّى كأسنانٍ مخلوعة، وفي الباب رجلٌ نحيل في السبعين يرتدي بدلةً سوداء مهترئة، يمسك بكتلةٍ من المفاتيح كأنّه يحرس مقبرة.

«أنت من الجريدة؟ أنا عمّ فؤاد، عامل العرض. تفضّل. لدينا عرضٌ أخير الليلة، لكنّه ليس للجميع».

«وكيف يُدعى الجمهور؟»

ابتسم ابتسامةً غريبة. «الجمهور يأتي وحده».

قبل أن أدخل، فتحتُ مفكّرتي وقرأتُ ما كتبه لي رئيس التحرير بخطّه المستعجل: «السينما مُغلقة منذ ١٩٩١. الكهرباء مقطوعة. المحافظة ستهدمها يوم السبت. لا تتأخّر». رفعتُ عينيّ إلى الرجل

وقلتُ بحذر: «يا عمّ فؤاد، كيف ستعرضون فيلمًا والكهرباء مقطوعة؟»

نظر إليّ نظرة من سمع هذا السؤال ألف مرّة. «من قال إنّ الفيلم يحتاج إلى كهرباء؟ الفيلم يحتاج إلى من ينتظره».

وفي تلك اللحظة، من أعماق الصالة، تردّد صدى تصفيقةٍ واحدة. تصفيقةٌ بطيئة، كأنّ أحدًا ما كان ينتظر منذ ثلاثين سنة.

دخلتُ. الصالة واسعةٌ ومعتمة، مقاعدها المخمليّة الحمراء ممزّقةٌ كجروحٍ قديمة، والغبار يطفو في الهواء مثل ثلجٍ ساكن. قال عمّ فؤاد وهو يصعد بي إلى غرفة العرض: «اجلس هنا بجانب الآلة. إذا رأيتَ شيئًا على الشاشة فلا تتكلّم. وإذا رأيتَ نفسك، فلا تهرب».

ضحكتُ. حسبتُه يمزح. لكنّه لم يضحك.

في الثامنة تمامًا، دون أن يلمس أحدٌ شيئًا، دار الشريط. وانبعث من العدسة ضوءٌ ذهبيّ عبر الظلام كأنّه جسرٌ من نار، ورأيتُ من نافذة الغرفة الزجاجية الصالةَ تمتلئ.

كانوا يدخلون بلا صوت. رجالٌ بقمصان قديمة، نساءٌ بفساتين الستينيّات، أطفالٌ يتشبّثون بأيدي أمّهاتهم. أشباحٌ شفّافة تجلس في المقاعد المنسيّة، تحمل أكياس اللبّ وتتهامس. صفّقوا حين بدأت الشاشة تضيء.

همستُ: «من هؤلاء؟»

«مَن كان يحبّ هذا المكان»، قال عمّ فؤاد بلا التفات. «يعودون كلّ ليلةٍ يظنّون أنّهم لم يغادروا».

ومن المقعد المجاور لي، في غرفة العرض الضيّقة، رأيتُ ما لم ألاحظه حين دخلتُ: مقعدًا ثانيًا صغيرًا، مفروشًا بقطعة قماشٍ مطرّزة، وعليه لعبةٌ خشبية قديمة. تردّدتُ ثم سألتُ: «لمن هذا المقعد؟»

تيبّست يد عمّ فؤاد على الرافعة. «لابني زكريّا. كان يجلس هنا كلّ مساء، وهو في السابعة، يحبّ أن يرى النور يخرج من العدسة. في ليلةٍ أُطفئت الأنوار فجأة، وهرب الناس، ولم أجده بعدها».

لم أجد ما أقول. وكان في صوته شيءٌ يشبه الصدأ.

«منذ ذلك اليوم»، تابع، «وأنا أعرض الفيلم لكلّ من يأتي. لعلّه يأتي بين الوجوه ذات ليلة. لكنّ الفيلم لا يُظهر لي أنا شيئًا. يُظهر فقط لمن يأتي إليه».

ثم ضغط الزرّ، وبدأ العرض.

لم يكن فيلمًا عاديًّا. ظهر على الشاشة شارعٌ أعرفه، ثم بابٌ أعرفه أكثر. بابُ بيتنا. وخرج منه طفلٌ يركض ويضحك. أنا. كنتُ في العاشرة، وفي يدي كرةٌ حمراء.

شهقتُ. كدتُ أقول شيئًا، لكنّني تذكّرتُ تحذيره.

تتابعت المشاهد: أبي وهو يعلّمني ركوب الدرّاجة، أمّي تضع لي الطعام وتنظر إليّ بحنان، وصديقي الأوّل ماهر يقفز معي من فوق السور. كلّ لحظةٍ نسيتُها، أو ظننتُ أنّني نسيتُها. كنتُ أراها كما لم أرها يومًا: من الخارج، بعينِ من يحبّني.

وسالت دموعي دون أن أشعر.

وبينما كنتُ أمسح دموعي، لاحظتُ أنّ الضوء المنبعث من العدسة يتحرّك ببطءٍ نحو يدي، كأنّه يريد أن يلمسها. وحين لامسني شعرتُ

بدفءٍ غريب، ورأيتُ حروفًا ذهبية صغيرة تتشكّل على جلدي، تحكي شيئًا لا أقرؤه. نظر إليّ عمّ فؤاد وقال بصوتٍ خافت: «هكذا يُعلّمك الفيلم أنّه اختارك. لا تسحب يدك».

وفجأةً تغيّر الضوء. انقلب لون الشاشة إلى رماديٍّ داكن، وظهرت غرفةٌ لا أعرفها. غرفةُ مستشفى. سريرٌ أبيض، وعليه رجلٌ عجوز يتنفّس بصعوبة، ووقف بجانبه شابٌّ يشبهني كثيرًا، لكنّه أكبر. عيناه غائرتان، وفي يده كاميرا. كاميرتي. نفس الكاميرا التي أحملها في هذه الليلة.

قلتُ بصوتٍ مرتجف: «عمّ فؤاد. هذا... هذا مستقبلي؟»

«لا»، قال بهدوء. «هذا ما سيحدث إذا لم تتغيّر».

التفتُّ إليه فزعًا. وللمرّة الأولى رأيتُه بوضوح: لم يكن عمّ فؤاد رجلًا عجوزًا عاديًّا. كان وجهه يتبدّل في ضوء العرض، مرّةً شابًّا ومرّةً طفلًا ومرّةً شيخًا، كأنّ الزمن كلّه يمرّ على ملامحه في ثوانٍ.

«في هذه السينما»، قال، «يعرض الضوءُ ما ضاع منكم ويُريكم ما سيضيع. هذا الرجل على السرير هو أبوك. وسيرحل بعد شهرين،

وأنت في سفرٍ لتصوير حربٍ بعيدة، لأنّك تحسب أنّ الصورة الكبيرة أهمّ من الوجه الذي أنجبك».

شعرتُ أنّ الأرض تميد. أبي؟ كان صحيحًا معافًى حين تركتُه ذلك الصباح. تذكّرتُ سعاله الجافّ الذي تجاهلتُه، وتهرّبه من الطبيب، وابتسامته حين قلتُ له إنّني سأسافر الأسبوع القادم.

«لكنّه فيلم»، قلتُ بيأس. «مجرّد فيلم».

«وهل كانت الأفلام يومًا مجرّد أفلام؟»

ثم همس بكلمةٍ جعلتني أنتفض: «الفيلم لا يُعرض إلّا لمن بقي في عمره ما يكفي لتغيير النهاية».

سألتُه، وصوتي يتقطّع: «وزكريّا؟ هل رأيتَه في الفيلم يومًا؟»

لم يجب. نظر إلى الصالة، ثم إلى المقعد الصغير، ثم قال ما لن أنساه: «كلّ ليلةٍ أنظر في الصفّ الأخير. لأنّه كان يحبّ أن يجلس هناك لينظر إليّ من بعيد».

التفتُّ إلى الصفّ الأخير. كان فارغًا. لكنّني، لثانيةٍ واحدة، لمحتُ طفلًا صغيرًا يرتدي قميصًا مقلّمًا يلوّح بيده إلى غرفة العرض، ثم يختفي.

لم أقل شيئًا. لا أعرف لماذا ظننتُ أنّ الصمت أرحم.

وقبل أن أردّ، انقطع الضوء.

ساد الظلام، ثم دوّى في الصالة صوتُ المقاعد وهي تتحرّك. نهض الأشباح كلّهم دفعةً واحدة، واستداروا نحو غرفة العرض، ألفُ وجهٍ شاحب يحدّق بي. ورأيتُ بينهم، في الصفّ الأوّل، رجلًا يشبه أبي، يمدّ يده نحوي كأنّه يقول: «تعال».

صرخ عمّ فؤاد: «اخرج الآن! الشريط ينتهي بعد دقيقة، ومن يبقى حتى النهاية لا يغادر!»

جريتُ. لا أذكر كيف نزلتُ السلّم الحديديّ، ولا كيف شققتُ طريقي بين المقاعد. أتذكّر فقط أنّ الأيادي الشفّافة كانت تلامس كتفي ببرودة الماء، وأنّ صوتًا نسائيًّا حنونًا همس: «لا تذهب، ابقَ معنا، لا

أحد يحبّك مثلنا». وأنّني حين وصلتُ إلى الباب الكبير، التفتُّ مرّةً أخيرة.

كان عمّ فؤاد يقف على بابِ غرفة العرض، ينظر إليّ بعينين حزينتين ويلوّح لي بيده. وخلفه، على الشاشة، لمحتُ آخر لقطة في الفيلم: بيتنا، وبابُه مفتوح، ورجلٌ عجوز يجلس على عتبته ينتظر أحدًا.

ركضتُ إلى الشارع، فوجدتُه خاليًا. لا ضوء، لا صالة، لا أحد. بقيت اللافتة الحديد تتأرجح، وانطفأت آخر مصابيحها كأنّها أنفاسٌ تُسحب.

في الصباح اتّصلتُ بأبي. أجابني بعد الرنّة الأولى، وبصوته الذي لم أعد أتخيّل أنّني سأحنّ إليه هكذا. قلتُ: «أنا قادمٌ إليك الآن. وسآخذك إلى الطبيب».

«ما الأمر يا ولدي؟ صوتك غريب».

«فيلمٌ رأيتُه الليلة»، قلتُ، وبكيتُ ضاحكًا. «وفيه نهايةٌ أريد أن أغيّرها».

ذهبنا إلى الطبيب في ذلك اليوم نفسه. وجدوا شيئًا صغيرًا في صدره، شيئًا يُعالَج حين يُكتشف مبكّرًا. عاش أبي بعدها أحد عشر عامًا، يجلس كلّ مساء على عتبة بيتنا، وأجلس بجانبه، ولا أسافر أبعد من نداءٍ منه.

وفي ليلةٍ عدتُ فيها إلى شارع السينما المهدومة، حيث صار الآن برجٌ زجاجيّ، وجدتُ قطعةً حديديةً صدئة بين الأنقاض. كانت قطعةً من لافتةٍ قديمة، منقوشًا عليها بحروفٍ باهتة: «آخر عرض».

وسألتُ عن عمّ فؤاد في الحيّ كلّه، فلم يعرف أحدٌ عامل عرضٍ بهذا الاسم. إلّا امرأةً عجوزًا تبيع الجرائد قالت لي: «فؤاد؟ مات منذ ثلاثين سنة، وهو يبحث عن ولده في السينما المظلمة. يقولون إنّه وجده في النهاية». ولم أسألها كيف عرفوا. أخذتُها معي. وكلّما ضقتُ بالدنيا ووضعتُها على المكتب أمامي، رأيتُ في الحديد ضوءًا ذهبيًّا خافتًا، كأنّ شريطًا ما لا يزال يدور في مكانٍ بعيد، ينتظر من يأتي ليرى ما ضاع منه… قبل أن يضيع.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app